(٦٥)

المجادلة

وظهار الجاهلية!

* ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾

[سورة المجادلة: الآية: ١]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[سورة المائدة: الآية: ٦]

* ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

[سورة الأحزاب: الآية: ٤٠]

* * *

«المدينة فى ربيع الأول للسنة الخامسة للهجرة.. تترى الأنباء بأن دومة الجندل، بشمال المدينة فى قلب الشام، قد صارت مركز تجمعات لقبائل قست قلوبها وأخذت تبث المظالم وتقطع الطرق على القوافل، وتظلم من يمر بها!!.. لم يكفهم أنهم يتعرضون لتجار الأنباط الذين يحملون الميرة والزيت والدقيق إلى المدينة، وإنما تزايدت أطماعهم حتى باتوا يفكرون فى الإغارة على أطراف المدينة!!».

«النبى ﷺ يتشاور مع صحابته.. يقر الرأى على أن كسر شوكة هؤلاء يوقف الأخطار التى تتهدد المدينة وتتعرض لقوافل تجارتها وإمدادها، ويكسر زهو قيصر الذى يتزايد يومًا بعد يوم.. يجمع المسلمون أمرهم، ويتجمعون فى نحو ألف بظاهر المدينة وقد ترك النبى عليها سِباع بن عُرْفُطة..».

«فى القافلة عائشة زوج النبى عليه السلام.. خرجت مع من خرجن من نساء المسلمين.. الأنصار يعرضون على النبى عليه السلام أمر الأدلاء.. يرشحون له دليلا يقال له «مذكور».. هاد ماهر من بنى عذره، واسع المعرفة بطرق الشمال إلى الشام.. يشير على النبى أن يسيروا ليلاً ويكمنوا نهارًا، وأن يتجنبوا الطرق المعتادة حتى لا يتفشى أمر مسيرتهم..».

* * *

«بعد أيام، وقد وصلت طلائع المسلمين إلى مرابض قبائل دومة الجندل.. يقترح الدليل «مذكور» – أن يأذن له النبى أن يقوم بمهمة استطلاعية فيأذن له عليه السلام.. «مذكور» يتتبع آثار النعُم والشاء.. يقتفى أثر القوم فيجدهم قد غربوا وتركوا ساحتهم وماشيتهم ورعاءهم، وتفرقوا فى الجبال والوديان تحاشيًا للمسلمين الذين فجأهم حضورهم..».

«المسلمون يضربون خيامهم بالباحة، يقيمون أيامًا.. يبثون السرايا فيما حولهم لتسقَط الأحوال والموادعة.. محمد بن مسلمة يصادف رجلا من القوم، فيأتى به إلى النبى عليه السلام..»

النبى : (للرجل مستطلعًا) أين قومك؟

الرجل : هربوا أمس لما سمعوا بمقدمكم..

«النبى ﷺ يكرم وفادته، ويعرضُ عليه الإسلام، ويتلو له ما تيسر من القرآن.. تتتابع الأيام والرجل فى ضيافة المسلمين، يراهم فى صلواتهم، ويسمع تلاَوتهم وترتيلهم.. ينشرح صدره للإسلام.. ينشد لقاء النبى عليه السلام..».

الرجل : جئتك يا رسول الله أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنك رسول الله..

«تتصاعد تكبيرات المسلمين..»

* * *

«فى طريق العودة، وقد سقطت قلادة للسيدة عائشة فى البيداء على مشارف المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ راحلته، وانشغل بعض المسلمين فى التماسه.. الرحلة قد طالت، وهم الآن فى موضع لا ماء فيه، وليس معهم ماء.. منهم من مسته جنابة..».

بعض المسلمين : (لأبى بكر) ألا ترى ما صنعت عائشة؟

آخرون : يا أبا بكر، إن البعض على جنابة.. لا ماء هنا، وليس معنا ماء..

أبو بكر : (وقد لحق بعائشة يلكزها معاتبًا) يا بنية، حبست الناس فى قلادة!!.. حبست رسول الله والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء..»

«عائشة تطرق حياءً لا تدرى ما تقول..»

* * *

«فى الصباح النبى ﷺ يتفقد الماء للوضوء للصلاة فلا يجد.. المسلمون الذين أصابتهم الجنابة فى حيرة.. النبى عليه السلام يتغشاه الوحى، فيوحى إليه جبريل عليه السلام من آيات ربه..».

جبريل : (يتلو على محمد) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ

مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ [سورة المائدة: الآية: ٦]

(يرتفع الوحى)

* * *

«المدينة لعشرٍ بقين من ربيع الآخر سنة ٥هـ، وقد عاد النبى والمسلمون دون أن يلاقوا شرًّا أو يضطروا لقتال.. قد وادعوا فى طريق إيابهم عُيَينة بن حصن الفزارى، وتعاهد المسلمون وبنو فزارة على الرعى فى «تغْلمين» (موضع لبنى فزارة) وما يليها إلى «المَراض» (واد على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة)، تتسامع القبائل بما كان، وتغمر المدينة مشاعر الطمأنينة والارتياح والأمان..».

* * *

«بيت النبى ﷺ بالمدينة.. ما يكاد عليه السلام يصل عائدًا من دومة الجندل حتى يبلغه أن أم صاحبه سعد بن معاذ قد لبت نداء السماء.. يتغشاه ﷺ حزن عميق.. إنها أم ليست ككل الأمهات، ولصاحب من أصحابه ليس ككل الصحاب! إنه عليه السلام ليذكر كيف

استقبلت استشهاد ابنها عمرو بن معاذ يوم أحد بجنان ثابت وقلب صابر تقول له عليه السلام، وقد رأته سالمًا واطمأنت عليه: «أما إذ رأيتك يا رسول الله فقد اشتويت المصيبة»! يبادر ﷺ إلى صاحبه سعد بن معاذ يعزيه، ويصحبه إلى قبرها..».

* * *

«أمام القبر، وقد فرغ الرحمة المهداة عليه السلام من الصلاة والدعاء للراحلة العزيزة أن يتقبلها ربها قبولا حسنًا وأن يتغمدها برحمته ورضوانه..».

سعد بن معاذ : يا رسول الله أتصدق عنها؟

النبى : نعم.

سعد بن معاذ : أى الصدقة أفضل؟

النبى : الماء..

سعد بن معاذ : أفعل إن شاء الله.. سأحفر بئرًا لأم سعد أجعلها لسقاية الناس..

* * *

«المدينة.. دار أوس بن الصامت، أخى عبادة ابن الصامت وأحد المسلمين الأوائل.. أبلى أعظم البلاء فى بدر وأحد، وآخى النبى – عليه السلام – بينه وبين مرثد بن أبى مرثد الغنوى.. أوس قد تقدم به العمر حتى ساء طبعه، لم يعد رفيقًا حانيًا كما كان.. إن زوجته ابنة عمه، تبذل له

ما تتمنى به رضاءه.. بيد أنه صار كثير التبرم كثير الشجار، عنيف المسلك.. امرأته خولة بنت ثعلبة تصبر على ما تلقاه منه.. تتفادى الشجار معه ما وسعتها المفاداة.. ولكنه اليوم قد أغلظ عليها فاشتد فى غلظته وعنفه.. لم تدر إلا وقد راجعته قليلاً فيما يفعل.. أوس يثور ثورة عارمة.. يصيح ويصخب وقد تملكه غضب جامح!

أوس بن الصامت : (لزوجته ثائرًا) أنت علىّ كظهر أمّى!!

«خولة صامتة لا ترد، تمضى من أمامه بادية الأسى والحزن.. بينما ينطلق الرجل إلى الخارج ينشد منتدى قومه».

* * *

«دار أوس بن الصامت وقد عاد بعد ساعة إلى زوجته.. يريدها عن نفسها.. تمتنع عليه نزولا على اليمين التى ألقاها عليها.. قد كانت «طلاقًا» فى الجاهلية.. عبثًا يحاول الزوج أن يثنيها!!».

خولة بنت ثعلبة : (لزوجها فى تصميم) والذى نفس خولة بيده، لا تخلص إلىّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا!!

أوس : أتراك قد حرمت علىّ؟!

خولة : حتى يحكم الله ورسوله فينا..

أوس : ما ذكرت طلاقًا!! إنى أستحى أن أسأل رسول الله فيما صنعت! فاسأليه أنت عسى أن تكسبيها منه خيرًا يفرج عنا ما نحن فيه!

«خولة تبادر إلى الخروج.. تذهب إلى بعض جاراتها.. وتستعير ثوبًا يليق أن تذهب به إلى

النبى – عليه السلام – تتمنى على الله أن يجد لهما الرحمة المهداة مخرجًا مما تسببت رعونة زوجها فيه!!».

* * *

«بيت النبى – عليه السلام – معه عائشة وقد جلست إليهما خولة بنت ثعلبة شاكية قد غلبها الهم والضيق!!».

النبى : (ناصحًا ومهدئًا) يا خولة، ابن عمك شيخ كبير، فاتق الله فيه!..

خولة : يا رسول الله، أكل شبابى، ونثرت له بطنى، حتى إذا كبرت سنى، وانقطع ولدى، ظاهر منى.. فهل «ظهار» الجاهلية لا يزال طلاقًا فى الإسلام؟! اللهم إنى أشكو إليك!!

النبى : (آسفًا) لقد حَرُمتِ عليه!!

خولة : يا رسول الله إن لى منه أولادًا.. ووالله ما ذَكَر طَلاَقًا!!

النبى : (آسفًا فى اقتضاب) لقد حَرُمتِ عليه!!

خولة : يا رسول الله، إن أوسًا من قد عرفت، أبو ولدى وابن عمى وأحب الناس علىّ.. وقد عرفت ما يصيبه من اللمم، وعجز مقدرته وضعف قوته وعىّ لسانه، وأحق من عاد عليه أنا بشىء إن وجده وأحق من عاد علىّ بشىء إن وجده هو! (تستأنف متهدجة الأنفاس) قد قال كلمة! والذى أنزل عليك الكتاب بالحق ما ذكر طلاقًا! ما قال إلا: أنت علىّ كظهر أمى!

النبى : ما أراك إلا قد حَرُمْتِ عليه!

خولة : (فى إلحاح) أشكو إليك فاقتى ووحدتى ووحشتى وفراق زوجى وابن عمى، وقد نفضت له بطنى..

النبى : لقد حَرُمْتِ عليه!!

خولة : (فى تصميم) يا رسول الله، قد نسخ الله سنن الجاهلية، وإن زوجى ظاهر منى.

النبى : ما أوحى إلىّ شىء فى هذا!

خولة : يا رسول الله، أيوحى إليك فى كل شىء، ويطوى عنك هذا؟!

النبى : (آسيا) هو ما قلت لك!!

خولة : وأولادنا يا رسول الله، إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا!!!

النبى : (آسيًا) هو ما قلت لك.. ما أوحى إلىّ شىء فى هذا!

«النبى ﷺ يطرق مشغولا بالهم الذى ألمّ بصاحبه وزوجه.. ترقبه خولة بنت ثعلبة فى إشفاق وأمل ورجاء..»

خولة : (داعية) اللهم إنى أشكو إليك شدة وجدى، وما شق علىّ من فراق زوجى، اللهم أنزل على لسان نبيك ما يكون لنا فيه فرج..

«خولة بنت ثعلبة تغالبها عبراتها فتنخرط فى البكاء.. يعلو نشيجها، فتبكى عائشة وأهل البيت لبكائها.. لا يجرؤ أحد على معاودة الرسول – عليه السلام – فيما قال.. ثم إنه ليبدو حزينًا مشغولا بما سمع، مستغرقًا فى مناجاة صامتة!».

«بعد برهة.. النبى ﷺ يخفق خفقة، ويبدو كمن تغشاه شىء لا يدركه سواه.. تنظر إليه عائشة مشفقة.. تعرف مما شاهدته سلفًا أنه الوحى.. بجانب من الدار عائشة وخولة تتناجيان..».

عائشة : (لخولة – هامسة) يا خولة، إنه ليتنزل عليه.. ما هو إلا فيك!

خولة : (راجية) اللهم خيرًا.. فإنى لم أبغ من نبيك إلا خيرًا!

«عائشة وخولة ترقبان من بعيد فى إشفاق ممزوج بالأمل والرجاء.. النبى ﷺ ينصرف إلى ما يتلقاه من وحى السماء..».

جبريل : (يتلو على محمد) ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [سورة المجادلة: الآيات: ١ – ٤]

(يرتفع الوحى)

* * *

«النبى ﷺ وقد ارتفع عنه الوحى.. يبدو وقد انفرجت أساريره.. يلتفت ناشدًا خولة..

يلمحها بجانب من الدار، فيناديها – عليه السلام – متبسمًا..».

* * *

خولة : (وقد طارت إليه يحدوها الأمل) لبيك يا رسول الله.

النبى : قد أنزل الله تعالى قرآنًا فيك وفى صاحبك.

«النبى – عليه السلام – يتلو عليها ما تنزل من آيات ربه..».

النبى : (لخولة) مريه فليعتق رقبة.

خولة : والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق؟!

النبى : فليصم شهرين متتابعين..

خولة : (مستعطفةً) والله إنه لشيخ كبير، ما به من صيام!!

النبى : فليطعم ستين مسكينًا وسقًا من تمر!!

خولة : (مستعطفة) يا رسول الله، ما ذاك عنده!!

النبى : (حانيًا شفوقًا) فإنا سنعينه بعرق من تمر.

«الرسول – عليه السلام – يبادر فيأمر أهل بيته فيدبرون لخولة خمسة عشر صاعًا من التمر.. لتستعين بها فى كفارة الظهار»

خولة : يا رسول الله، وأنا سأعينه بعرق آخر.

النبى : (راضيًا) أصبت وأحسنت، فاذهبى فتصدقى به عنه، ثم استوصى بابن عمك خيرًا..

«خولة تنطلق راضية قانعة قريرة..»

* * *

«المدينة.. ما لهذه الأيام تحمل أنسامًا غريبة، وتورى بتصاريف مختلفة لأقدار متباينة تصب

على اختلافها فى نهر النبوة الدافق الذى يبدو أن الابتلاء والاصطفاء يتعانقان فى مجراه تعانقًا تتوارى فيه الذات المحمدية وتذوب فى الله لتفسح فى رضًا وتسليم لما قدرته وأرادته مشيئة السماء.. إن محمدًا المصطفى قد احتمل من نكال وإيذاء الكفار ما تنوء به الجبال، ونهض فى القيام بأعباء الدعوة بما لا يطيقه آلاف البشر.. ولكن ما بال هذا الابتلاء الجديد - جديدًا فى نوعه وجنسه وشكله.. لقد أوذى فى الله، فلم يهن، وأوذى فى بدنه وأهل بيته، فلم يضعف، وقاومته الدنيا فلم تزده الشرور التى واجهها إلا مُضِيًّا لا يتزعزع فى الثبات لها وتجاوزها، ولكنه يرى هذه المرة تصاريف مختلفة تقتحم المجرى الدافق الجارى إلى غايته، وتحمل إليه ابتلاء يقضه أن يستسلم له، ويكاد للمرة الأولى يتوجس مما يحدثه الإلهام بأنه آت ليس منه مهرب ولا مفر!! إن حياته كلها انصياع كامل لمشيئة السماء، وتوار تام للذات الذائبة كلية فى الذات الإلهية، وانصراف تام عن أى مطالب أو رغائب مما اعتادته نفوس الناس! إنه لا ولم يطلب وهو ينهض برسالته مكانة ولا مجدًا ولا مغنمًا، ولا ولم يسع إلى ثراء ولا غنى! لا يهمه أن يمتلك من الدنيا غاليًا أو رخيصًا.. ثمينًا ولا بخسًا!! لم ينشغل يومًا بشىء مما يتمنى أن

يمتلكه أو يناله الناس.. ياء الملكية ملغاة لديه.. يقول للناس: «نحن الأنبياء لا نورث. ما تركناه صدقة».. ويقول لصاحبه أبى ذر فى أحضان جبل أحد: «يا أبا ذر.. إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلَّا من أعطاه الله خيرًا فقتح فيه يمينه وشماله بين يديه ووراءه وعمل فيه خيرًا..»

.. يدرك خضوعه المخبت إلى إرادة السماء، ولا يحجب ذلك عن الناس.. يتلو عليهم من آى الذكر الحكيم ما نزل به إليه أمر ربه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [سورة الأنعام: الآية: ٥٠].. لم ينكر يومًا ما أوحى به إليه، ولم يتبرم بما قد يتبرم به الناس، ولا حجب عتاب السماء الذى تنزل عليه يقول فى شأن الأعمى الذى عبس من صنيعه وإلحاحه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة عبس: الآيات: ١ - ١٦].. يوم نزلت عليه الآيات بمكة، لم يبطئ بها على الناس،

ولا تردد فى بثها إليهم.. حمل فى تسليم وإذعان مشيئة وعتاب السماء إلى الناس.. إنه ليعلم أن هذا الاصطفاء الذى امتنت به السماء، جوابه خضوع وإخبات وإذعان وتسليم.. ولكن ما بال الإذعان يعز عليه هذه المرة، وما بال القلق مما يحس بمقدمه – يعتريه فيأخذ عليه كل نفسه.. إن «زيدًا» ابنه بالتبنى وحبه.. ينسى الناس أن أباه هو «حارثة»، ويطيب لهم أن ينادوه أحيانًا «زيد ابن محمد».. أليس ربيب محمد، الذى تبناه ضائعًا ضالاً هائمًا، وكفله ورعاه ورباه؟ ألم يغبطه الكثيرون على محبة المصطفى – عليه السلام – وإيثاره له عمن سواه؟ ألم يخصه ﷺ بشرف مصاهرة البيت النبوى فسعى عليه السلام جاهدًا حتى غلب ابنة عمته: « بَرَّة بنت جحش» وأثناها عن رفضها خطبته، وما زال بها – عليه السلام – حتى أزال استنكافها أن تتزوج وهى النبيلة القرشية، وابنة عمة النبى، من مولى من الموالى؟! ألم يقنعها وأخاها حين قالت: «أنا خير منه حسبًا» – أنه لا أحساب فى الإسلام؟ إنه عليه السلام ليذكر كيف قالت ابنة عمته يومها: «لست بناكحته!»، وكيف قال لها: «بل فانكحيه!».. وإنه ﷺ ليذكر ما تنزل عليه يومها من آى الذكر الحكيم.. أتاه وجبريل يوحى إليه بقول ربه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى

﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية: ٣٦].. إنه عليه السلام ليذكر كيف أزالت الآية الكريمة التى سارع بها إليهم ما تبقى من مقاومة لدى «برة» بنت جحش وأسرتها لفكرة الزواج من «زيد».. كيف قالت «برّة» يومها «قد رضيته يا رسول الله زوجًا، لا أعصى الله ورسوله.. قد أنكحته نفسى».. يومها اغتبط عليه السلام وسر خاطره بما وفق إليه من جمع حِبه بابنة عمته ليكون الزواج بينهما سكنًا وعشرة.. ولكن ما بال الأيام والعشرة بينهما تأتى بغير ما تمنى.. إن زيدًا ليشكو إليه فى الفترة الأخيرة من تمنعها عليه وإيذائها له!! ترى ألا يزال فى قلبها غصة وغضاضة من هذا الزواج تراه غير كفء لها وهى الشريفة القرشية؟! ترى ماذا تخبئه الأيام، وماذا سوف تأتى به التصاريف.. ها هو زيد ابن حارثة قد جاءه للمرة بعد المرة شاكيًا متبرمًا..».

النبى : (لزيد ناصحًا وقد سمع شكايته) أمسك عليك زوجك!

* * *

«بعد أيام.. بيت النبى ﷺ يأتيه زيد بن حارثة شاكيًا من زوجته بَرّة بنت جحش.. يشكو إلى النبى عليه السلام ما بات يلقاه من سوء عشرتها وإيذائها له!!».

النبى : (لزيد) هل رابك منها شىء؟!

زيد : لا والله، ما رابنى منها شىء.. ولكنها تتعظم علىَ لشرفها، وإن فيها كبرًا، تؤذينى بلسانها!

النبى : (ناصحًا) يا زيد، أمسك عليك زوجك، واتق الله!

* * *

«النبى ﷺ ببيته بالمدينة.. لا يكاد يمضى يوم إلا يأتيه زيد شاكيًا من زوجته برة بنت جحش، راغبًا فى مفارقتها وقد استعصت العشرة بينهما.. قد بذل عليه السلام قصارى جهده لإثنائه، إلا أنه حل ما لم يعد لحلوله بد.. أبى زيد إلا أن يطلقها، وفعل.. وأخذت الأيام تترى بلا أمل فى إصلاح ذات البين بينهما حتى انقضت عدتها.. وإن الوحى ليلم بالنبى - عليه السلام - يشعره بأن إرادة الله غالبة فى أمر «برة» (زينب) بنت جحش لأمر قدره الله.. وإن محمدًا ﷺ لينحى هذا الخاطر الذى يلم به الوحى كلما أتاه، وكم نحاه كلما جاءه زيد شاكيًا راغبًا فى الفراق.. يثنيه ويقول له: «اتق الله وأمسك عليك زوجك»..».

«النبى ﷺ فى خواطره، يتنزل عليه الروح الأمين بأمر ربه..».

جبريل : (يتلو على محمد) ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا

ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ [سورة الأحزاب: الآيات: ٣٧ - ٣٩]

(يرتفع الوحى)

* * *

«النبى - عليه السلام - فى بيته، وقد ارتفع الوحى.. يقول عليه السلام لبعض أهله..».

النبى : من يذهب إلى زينب بنت جحش يبشرها أن الله قد زوجنيها من السماء..

«النبى - عليه السلام - يتلو ما تنزل عليه.. سلمى خادم الرسول تسرع إلى بيت زينب تريد أن تسبق إليها بالبشارة، بينما زيد وقد بلغه ما تنزل به القرآن - يأبى إلا أن يكون بدوره حاملاً للبشارة إليها، وكأنه يريد أن يعلن أنه راض طيب النفس لا حرج فى قلبه ولا ضيق فى صدره!».

* * *

«بيت زينب (بَرّة) بنت جحش، وقد أتتها البشارة تعطى لسلمى أوضاحًا (حليًا من الفضة)،

وتترك ما بيدها، وتقوم فتصلى لله شاكرة ما أنعم به عليها..».

❊ ❊ ❊

«بيت النبى ﷺ وقد رفعت بسلام وليمة العرس التى أقيمت على خبز ولحم وثريد احتفاءً بالزواج، وأهدت فيه أم سليم حَيْسًا من عجوة جعلته فى تور من الفخار.. لم يترك الرحمة المهداة أحدًا بالمسجد نائمًا أو قائمًا يصلى إلا دعاه مع صحابته إلى الطعام.. يتعجب أنس كيف شبع الكثيرون من هذا الطعام القليل!!».

«النبى - عليه السلام، وقد خرج الناس، وبقى رهط يتحدثون فى البيت.. يخرج إلى أزواجه يسلم عليهن ويدعو لهن قبل أن يرجع لمنامه.. يعود النبى - عليه السلام - فيلفى ثلاثة من الناس لا يزالون جلوسًا، يمنعه حياؤه أن يلمح إليهم بأنه يريد أن يخلو ببيته، فيضطر إلى الإياب إلى عائشة حتى يأتيه أنس بأنهم قد انصرفوا!!».

«النبى ﷺ فى خلوته ومناجاته وتعبده، يتغشاه الوحى بكلمات ربه..»

جبريل : (يتلو على محمد) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ

لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴿٥٣﴾

[سورة الأحزاب: الآية: ٥٣]

(يرتفع الوحى)

* * *

«المدينة، وقد انتهز المنافقون فرصة الزواج ليلغطوا فيقولون: ما لمحمد ينهانا عن زوجات الأبناء، ويتزوج هو زوجة ابنه زيد؟!! يتناسون فى لغطهم ما سبق أن نزل به قول الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب: الآيات: ٤ – ٥].. ما لهؤلاء يتجاهلون أنه منذ نزلت هذه الآيات لم يعد أحد ينادى زيدًا بأنه ابن محمد، وصاروا ينسبونه إلى أبيه «حارثة»، فما بالهم يلغطون

ويتجاهلون ما يعلمون من أن زيدًا هو زيد بن حارثة، وليس ولم يكن ابنًا من صلب محمد المصطفى ﷺ..».

«النبى عليه السلام فى مناجاته وتعبده، يتنزل عليه الروح الأمين، فيوحى إليه من كلمات ربه..».

جبريل : (يتلو على محمد) ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية: ٤٠]

(يرتفع الوحى)

* * *